الدعوة الإسلامية ومنهجها القرآني

للدكتور : محمد بن سعد الشويعر

المقدمة :

الحمد لله الذي جعل الإسلام دين دعوة منذ أظهره الله، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي أمره ربه بالدعوة إليه، وإبانة الحق للأمم جميعها على وجه الأرض في مثل هذا القول الكريم : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[1] .

فقد كان رسولاً إلى الثقلين : الجن والإنس يبلغهم أمر الله، لاتباع دينه الحق وليعرفوا مهمتهم في الحياة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[2] يدعوهم إلى ذلك الدين الذي لا يقبل الله من الخلق سواه، وبه أرسل الله سبحانه جميع الرسل، من أولهم إلى آخرهم، ثم كان الدعاة المصلحون سائرين على نهجهم بالإصلاح والدعوة

---

(١) سورة الشورى، الآيتان ١٤، ١٥ .

(٢) سورة الذاريات، الآيتان ٥٦، ٥٧ .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(١) ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢) وعلى آله وصحبه الكرام، الذين امتثلوا لأمر الله، في تحمل رسالة الدعوة، ونشر الدين الحق، في عبادة الله ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٣) ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد :

المنهج القرآني :

فإن منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله، واتباع دينه الحق، هو ما يجب أن يتربى عليه الدعاة إلى دين الله، في الخلق والعمل، وإخلاص النية لله جل وعلا، مثلما تأدب بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن فظًّا غليظ القلب، ولا فاحشاً متفحشاً، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : « خلقه القرآن » رواه مسلم مطولاً(٤). ولما سأله أبو بكر رضي الله عنه بقوله : بأبي أنت وأمي يا رسول الله من أدبك ؟ ـ أي علمك ـ أجابه الرسول الكريم بقوله : « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** » فكان المنهج

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٨٥ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩ .

(٣) سورة الزخرف، الآيتان ٤٣، ٤٤ .

(٤) صحيح مسلم ٧٤٦، ورواه أحمد ٦/ ٥٢ .

القرآني في تهيئة النفوس لتحمل الدعوة، والقيام بأعبائها، منذ أنزل الله كتابه الكريم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتعهد الله سبحانه بحفظه عن التبديل والتحريف ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]، هذا المنهج الذي أبانه الله لعباده، ووصى النبي به أمته عندما اقترب أجله بعدما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الوصية بما يعملون بعد أن يفرق الموت بينهم، فقال : « **تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله** »[2]. هذا المنهج موجود في كتاب الله جل وعلا، حيث يخاطب العقول في كل زمان ومكان بما يتلاءم مع المدارك، ويقرب المحسوس في كل بيئة إلى العقول الصافية، لتدرك عظمة الله سبحانه، وما يجب على المخلوق تجاه خالقه، وتعرف ما على المخلوق من تبعات في تأدية هذا الواجب : قولية وفعلية واعتقادية .

فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته الجامعة الوافية في حجة الوداع أمته بأمور كثيرة في مقدمتها : كتاب الله حيث قال : « **وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت** » فأشهد الله على

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، وينظر جامع الأصول لابن الأثير ج١ الكتاب الثاني، الاعتصام بالكتاب والسنة ص ٢٧٧ .

ذلك ثلاث مرات[١].

ويتمثل ذلك المنهج في أمور كثيرة يدركها من تدبر هذا القرآن الكريم، وتمعن في سمو الأخلاق التي يدعو إليها، وعمق المعاني التي تبرز من دلالة لفظه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢].

منها :

١ ـ تهيئة الشخصية الداعية، والتي تتحمل عبء التبليغ، لمواجهة الأجناس البشرية المتباينة في طباعها وغاياتها، والمختلفة في المدارك والنوايا؛ من حيث المثالية في العمل ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[٣]، والصدق في العمل والقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٤]، والشمولية في الفهم والإدراك، مع الحلم والصبر وقوة التحمل في هذا العمل، وعدم التسرع في طلب النتيجة ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[٥].

٢ ـ احتواء الناس المدعوين إلى عبادة الله وحده، وإلانة الجانب لهم، وعدم التفرقة وفق النظرة الاجتماعية : في تحديد

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ج ٣ ص ٤٦٥، وتراجع خطبته ﷺ كاملة عند ابن الأثير، وعند البخاري، وعند مسلم .

(٢) سورة محمد، الآية ٢٤ .

(٣) سورة الصف، الآية ٣ .

(٤) سورة التوبة، الآية ١١٩ .

(٥) سورة الأحقاف، الآية ٣٥ .

التبعية بالمقاييس المادية، وتحين الفرص الملائمة للدعوة في مخاطبة الناس بها: حسيًّا واجتماعياً وعاطفياً ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾[1].

٣ ـ سعة أفق وعلم الداعي إلى الله، ورحابة صدره، وإدراكه ما يعتمل في المجتمع الذي يدعو فيه، من عادات وتقاليد ألفها المجتمع، وأمور سرت عند أبنائه وتوظيف القدرة بالعلم والحجة في التغلّب على معضلات ذلك المجتمع، بما يريح القلوب، ويقضي على مشكلات متفشية عندهم: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠ ﴾[2].

ويبرز ذلك في الآيات الكريمات التي تأتي في سير الأنبياء كلهم مع أممهم، وما يجعل الله لكل نبي من الآيات التي تظهر عظمة الخالق سبحانه، حتى تلين القلوب، وتستجيب الأفئدة، ويحق الجزاء على المعاند بإقامة الحجة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[3]، وطباع البشر والمؤثرات فيهم متماثلة.

٤ ـ احتواء المشكلات المعقدة التي تجعل الناس شيعاً

---

(١) سورة عبس، الآيات ١ ـ ١٠.
(٢) سورة الملك، الآية ٣٠.
(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.

وأحزاباً، وطريقة توجيههم إلى المنهج السليم في تأليف القلوب، والتغلب على المعضلات المعترضة في البيئة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[١].

٥ ـ وأن يختار الداعي إلى الله الوقت المناسب لدعوته، والاختصار في القول، وعدم التنفير أو إلزام المدعوين بالاستجابة عاجلاً أو آجلاً، بل يدع الكلمات الدعوية تترك أثرها في عقول المدعوين، والتّعمق في الدلالة وبعد المعنى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٢].

٦ ـ إدراك الداعي بأنه يدعو لله لا لنفسه، وأن دعوته عالمية لا أقليمية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[٣]، ويقول سبحانه لنبيه ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٤]، فدين الله للبشرية جمعاء، ولا فرق بينهم باختلاف أجناسهم وديارهم، ولا إكراه فيه، فمن بلغته الدعوة، وعرّفه الداعي ما يلزم معرفته؛ أمراً للعمل، ونهياً للترك، فقد أدى الداعي إلى الله دوره : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩ .
(٣) سورة المائدة، الآية ٦٦ .
(٤) سورة المائدة، الآية ٦٧ .

ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

٧ ـ تكون المجتمع القادر على الدعوة العامة في المجتمعات الأخرى؛ بالمثالية في العمل، والصدق في القول وكفّ الأذى وحب المساعدة وحسن التعامل، وبالأمانة وإعطاء الحقوق لمستحقيها، وبالوفاء بالوعد وبراءة الذّمة، والشعور بالرقابة الذّاتية، دون اللجوء إلى السلطة الإدارية، أو الشدة في الدعوة ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وغير هذا من أمور كثيرة يلمس أثرها كل من يتلو كتاب الله، ويتّمعن في عمق معانيه التي تظهر للإنسان بحسب المواقف، وإلاّ فإن شمول آيات الله الكريمات في كتابه العزيز تتبدّى آثارها الدعوية في قلوب المدعوين وعلى ألسنة الدعاة بحسب ما يجعله الله في قلوبهم من فكر ناضج وفهم دقيق .

وقد أجمل الشيخ دروزة تلك الأمور التي احتواها منهج القرآن الدعويّ وما تحتاجها البشرية في تسيير حياتها فضلاً عن

---

(١) سورة الشورى، الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٥ .

سعادتها في الآخرة بقوله : احتوى دعوة الناس كافة إلى عبادة الله وحده، وعدم الخضوع لأي قوة من قوى الكون غيره، وتنزيهه عن كل نقص وشائبة، وإلى جماع مكارم الأخلاق والفضائل، وأسباب سعادة الدارين، والتصديق بنبوة أنبياء الله، والكتب المنزلة عليهم، وتقرير كون هذه الدعوة التي احتواها هي الدين الحق، الذي ارتضاه الله للناس جميعاً، منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام، بالهدى ودين الحق، الذي فيه إظهاره على الدين كلّه، يقيم البشر في ظلّه دعائم مجتمعهم، ويسيرون في مختلف شئونهم وفق تعاليمه ومبادئه، وتلقيناته القائمة على أسس الحق، والعدل والمساواة، والإحسان والتعاون، ورفع الإصر والأغلال، وحلّ الطيبات، وتحريم الخبائث والفواحش والمنكرات، وتوطيد السلم العام بين الناس كافة، إخواناً متحابين، لا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يبغي بعضهم على بعض، ولا تبذّ فيه طائفة، ولا تحرم فيه فئة، ولا تتعالى فيه طبقة على طبقة، مع إيجاب التناصر على الباغي، حتى يفيء إلى حكم الله والحق، ومع الدعوة إلى التمرد على كل ضار، والإقبال على كل نافع صالح بقطع النظر عن قدمه وجدّته، ومع تقرير كون الله إنما يريد للناس اليسر، ولا يريد بهم العسر، ولم يجعل عليهم في الدين حرجاً، وبأسلوب قضي له بالخلود، من حيث البرهنة على صدق الدعوة وأهدافها، بتوجيه الخطاب للعقول والقلوب، وإدارته حسب أفهام الناس ومداركهم في هذا النطاق، حسب

اختلافهم وتفاوتهم في العقل والسعة والثقافة والأفق[١].

ذلك أن كتاب الله الكريم، قد اشتمل على كل شيء يتعلّق بالإنسان، ويشبع رغباته: الفكرية والمعيشية، والطبية وسائر العلوم، التي يبحث فيها الإنسان، وتتسابق إليها عقول البشر قديماً وحديثاً ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٢].

فلا يعترض الإنسان مشكلة، ولا تمر به تجربة علمية إلا ويجد في المنهج القرآني ما يدعو إلى أن يقف متمهّلاً أمام سبق القرآن، وإحاطته بما أودع الله فيه من علم، إذْ فتحت هذه الآية ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٣] أمام الأطباء آفاقاً علمية، وجذبت كثيراً منهم إلى نور الحق، فعرفوا السبيل الموصل إلى دين الله الحق الذي وقر في قلوبهم، فأسلموا لله ببراهين محسوسة برزت أمامهم، وفق عملهم، وما اعترضهم من صعوبات في مهنتهم، كما أن الآية: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[٤]، استفاد من توظيفها كثير من الدعاة في المحاورة والمجادلة بالتي هي أحسن مع الحكمة وراء كل أمر محرم في شريعة الإسلام، وأثره على الفرد والجماعة، خاصة بعد أن ظهرت أمراض عديدة في المجتمعات التي أحلت ما حرم الله: كالإيدز والهربز،

---

(١) التفسير الحديث لمحمد عزة دروزه (١٣٠٥ ـ ١٤٠٤هـ) ج١، ص ٣٢ .
(٢) سورة النحل، الآية ٨٩ .
(٣) سورة الذاريات، الآية ٢١ .
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٧ .

والأمراض النفسية، وغير ذلك، مما ينفذ أثره إلى العقول بفطنة الداعي إلى الله، وإدراكه ما وراء الأمر والنهي في كتاب الله من مصالح ترجى، ومصائب تجتنب .

وفي سير من أسلموا، وإخبارهم عن سبب دخولهم في دين الإسلام الحق، نجد المسلم : أحمد سامي عبدالله، الذي حكى قصة إسلامه، وما لقي من أهله وقرابته، وأبناء ملته السابقة، وهو يكتم إيمانه بالله الواحد الأحد، قبل أن يحكموا تآمرهم ويجمعوا على قتله، يردد هذه الآية الكريمة، ليجعلها نبراساً يعين على التحمل في سبيل دينه الإسلام الذي اعتنقه، وعظّ عليه بالنواجذ؛ لأن مدلولها دخل سويداء قلبه، وما تدل عليه قد عايشه من أهله وذوي قرابته : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1] .

مكانة الدعوة :

الدعوة إلى الله سبحانه لمّا كانت هي أعظم الأعمال البشرية، وأكبرها نفعاً، وهي مهمة أنبياء الله ورسله المأمورين بتبليغ أممهم دين الله جل وعلا، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإبانة ما يجب عليهم العمل به في حياتهم الدنيا، وما يلزمهم في علاقتهم بالله سبحانه تعبداً وعقيدة، وما تستقيم بهم

(١) سورة لقمان، الآية ١٥، ويراجع كتابه : لماذا وكيف أسلمت : العدد ٧٨ رمضان عام ١٤٠٨هـ من دعوة الحق ص ١٠٥ .

أحوالهم الشخصية والاجتماعية وسائر أمورهم في حياتهم .

فإن ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن بعدهم، ليس بالدرهم ولا الدينار، وإنما بالعلم، والعلم من أداء حقه مواصلة الدعوة إلى دين الله، والتأسّي بهم في الطريق الدعوي، الذي أبانه الله سبحانه عنهم في القرآن الكريم، فيتحمّل أهل التقى وذوو المعرفة من اتباعهم على الحق عبء الدعوة إلى الله سبحانه على بصيرة، متأسين بطبائعهم في الإخلاص والصبر، ومجادلة من عنده معرفة أو شبهة بالتي هي أحسن يقول سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في توجيه تعليميّ حتى يبين للناس مهمته، ومهمة من يتبعه على طريقة الدعوة، التي أمر بتبليغها وأنه هو القدوة في العمل : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] . وما يقص الله علينا من أخبار الأنبياء في الدعوة إلى الله مع قرابتهم وأهلهم هي منهج دعويّ، ترسَّم خطاه المهتمون بالدعوة في كل عصر، في القدوة والعمل، فقد قال سبحانه بعد الرد على شبه بني إسرائيل في عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾[2] .

قال ابن الجوزي في تفسيره، عند مروره بهذه الآية : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ المعنى : قل يا محمد للمشركين : هذه

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٦٢ .

الدعوة التي أدعو إليها والطريق التي أنا عليها (سبيلي) أي : سنتي ومنهاجي، والسبيل تذكر وتؤنث ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يعني : على يقين . قال ابن الأنباري : وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إلى الله عز وجل؛ لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه[١]؛ لأن في القرآن الهدى والنور، والبصيرة لمن يتدبر ويتمعّن .

فقد أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين، بعدما أمره الله بذلك، فوجه الدعوة إلى ابنته فاطمة، وعمه العباس، وسمى غيرهما من بني عبد المطلب، وبني عبد مناف : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢]، ودعاهم بعدما جمعهم إلى دين الله، وقال : « **لا أغني عنكم من الله شيئاً** » .

وهذا إبراهيم عليه السلام، يستغفر لأبيه حتى نهي، ويدعو أباه إلى دين الله الحق، لعله يسلم من غواية الشيطان ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾[٣] .

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٤ : ٢٩٥ .

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٢١٤ ـ ٢١٦، ويراجع تفسيرها عند ابن كثير والسيوطي .

(٣) سورة مريم، الآيات ٤١ ـ ٤٤ .

ونوح عليه السلام لم يستطع إنقاذ ابنه من الغرق؛ لأنه عمل غير صالح[1]. ولوط عليه السلام كانت زوجته مع القوم الفاسقين، فأصابها ما أصابهم من العذاب[2]. وابنا آدم غلبت على أحدهما الشقاوة، وحق عليه قدر الله سبحانه فأقدم على أول ذنب عُصي الله به على وجه الأرض بسفك الدم الحرام عند ما قتل أخاه حسداً على أن تقبل الله منه، قربانه ـ صدقته ـ لأنها من جيد ماله، وهو لم تقبل منه؛ لأنه اختار الرديء، والله سبحانه يتقبل من المتقين[3].

ومن هذه النماذج، التي مرت بأنبياء الله، واهتمامهم بالدعوة إلى الله بدءً بالأقرب من ولد وأهل وعشيرة، وقوم، وغيرهم، الأقرب فالأقرب، يبين الله سبحانه للعباد في القرآن الكريم الذي جاء فيه نبأ الأولين والآخرين من أفراد وأمم، وما كانت حالهم عليه، وحال دعوتهم إلى دين الله، وفق المنهج التعليمي لمناهج الدعوة : بأنها أمر إلزاميّ على كل قادر عليها، عالم فيما يدعو إليه، عالم فيما ينهى عنه؛ لأن الذمة لا تبرأ إلا بأداء هذه الأمانة بصدق وإخلاص، وأن تكون هذه الدعوة، بالرفق واللين، مع الحلم والصبر، واستيعاب ما عند المدعوين من شبهات وشكوك، بما يحرك الضمائر، ويلامس أوتار القلوب

---

(١) تراجع سورة هود، الآيات ٤٢ ـ ٤٧ .
(٢) تراجع سورة هود، الآية ٨١، والتحريم، الآية ١٠ .
(٣) تراجع سورة المائدة، الآيات ٢٧ ـ ٣١ .

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] ليستجيب من أراد الله له الهداية، ولتقوم الحجة على من كابر وعاند، فالدعوة إلى الله هي نبراس الأمم كلها، يسترشد المهتم بالتبليغ حماسته لأمر الله بما في القرآن الكريم من مسالك تيسر المعرفة، وتبصر بما خفي على الإنسان : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[٢].

مراحل الدعوة :

إن المتمعن في كتاب الله الكريم، يظهر أمامه عالمية الدعوة إلى الله سبحانه، وأنها لا تتقيد بأمة من الأمم، ولا بزمن من الأزمان، وإنما تتلاءم مع كل أمة من الأمم مهما كانت لغتها وأفكار أبنائها، بل تتأكد عندما تبتعد الأمة : أفراداً أو جماعات عن الطريق السويّ . وعندما يكثر الخبث، مهما كانت الأفكار والمؤثرات، ومهما كانت الأمور المتنازع فيها في تلك الأمة، ما دام المَيلَان عن طريق الحق، قد تحركت ناره الكامنة تحت الرماد، فيتعين التصدي لذلك، وفق الأسلوب الذي يبين من التتبع لآيات القرآن الكريم في طريقة العرض والمحاورة، والتبليغ والبرهان .

---

(١) سورة يس، الآية ٧٠ .

(٢) سورة الروم، الآيتان ٩، ١٠ .

فمن منهج القرآن الكريم في الدعوة مخاطبة العقول، وتلمس المداخل لأذهان الناس، بما يتفاعل مع الفهم السليم، حيث يكثر في القرآن الكريم مخاطبة العقل والتنويه بالقلب واللّبّ، والدعوة للتفكّر، والتبصّر في ملكوت السمٰوات والأرض، وما خلق الله في هذا الكون، حتى يتحرك الإحساس، ويربط الإنسان المعقول بالمحسوس: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الآيات[1].

فيقص الله علينا حكاية كل نبي مع قومه، وما حصل للأمم السابقة ليأخذ من يعي العبرة بما وصلوا إليه، وأنهم لم يستقيموا على حال بعد ابتعادهم ومعصيتهم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

ومدخل أنبياء الله للدعوة إلى الله مع أممهم، بنوعين: دعوتهم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له سبحانه وحده، ومعجزات يعطيها الله لكل واحد منهم، أكبر وأمكن مما هو سائد في مجتمع كل أمة من الأمم.

فموسى عليه السلام لما أرسله ربه إلى فرعون وقومه، كان

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٩٠ ـ ١٩٥.

(٢) سورة الروم، الآيتان ٩، ١٠.

السائد عندهم السحر، والتمويه على الناس، بما هو خارق العادة عندهم . فكانت المعجزة التي مكنها الله لموسى آيات تغلبت على أعظم ما جاء به سحرة فرعون . فأبطل الله سحرهم بالعصا التي أمر موسى بإلقائها، فإذا هي حية تسعى، تلتهم ما عمله السحرة : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾(١) .

فكان إيمان السحرة عن قناعة بعدما بان لهم الحق بما مكن الله لموسى، من هذه المعجزة، إلى جانب المعجزات الأخرى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾(٢) .

وعيسى بن مريم عليه السلام بعثه الله إلى قوم لديهم اهتمام بالأمور الطبية، فكانت المعجزة التي مكّنها الله لنبيه عيسى عليه السلام، أموراً أذهلت أمهر أطبائهم، وهي من مخاطبة عقولهم بما يفوق قدراتهم، كمدخل من مداخل الدعوة إلى الله والتعريف بما يجب اتباعه من الحق . فكان عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بقدرة الله مما تغلب على عقولهم، وتجاوز قدراتهم، ووقفوا أمام ما مكّن الله لعيسى عليه السلام حائرين، حتى يعلموا أن ما جاءهم به، إنما هو حق من

(١) سورة طه، الآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) سورة النمل، الآيتان ١٢ ـ ١٣ .

عند الله ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(١) .

وتأتي الآيات البيّنات، ومجادلة أهل الكتاب، في إيضاح للخوارق التي اكتنفت قصة النبي الكريم عيسى بن مريم عليه السلام، مما هو فوق المعهود في أذهان الناس، حيث ولد من أم بدون أب، وكلم الناس في المهد . فغلا فيه أهل الكتاب بالتثليث؛ فمنهم من اعتبره إلـٰها، ومنهم من اعتبره ابناً لله، ومنهم من جعله ثالث ثلاثة ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فكان من منهج القرآن الكريم، مما قص الله في أكثر من موقع، مدخلاً مقنعاً للدعوة إلى طريق الحق بالبيان الواضح والقرآن التي تخاطب آياته العقول بأن عيسى ما هو إلا رسول من الرسل، وأمه صديقة، خلقه بكلمة كن فكان، وبقدرة الله التي لا تخضع للمقاييس البشرية، فآدم خلقه الله من دون أم ولا أب، وحواء خلقها الله من ضلع آدم، وعيسى بن مريم خلقه من أم بدون أب، والله سبحانه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد يمتحن بذلك عقول عباده، ومدى استجابتهم لأمره ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ

---

(١) سورة المائدة، الآية ١١٠ .

﴿ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

وقصة عيسى وموسى مع قوميهما من أهل الكتاب، وما فيهما من الآيات النَّيِّرة، والمعجزات الفائقة لقدرات البشر، والبينات التي تخاطب العقول لكي تتدبّر، والأفئدة لترعوي إلى الحق، هي مما يحسن بالداعي إلى الله على بصيرة أن يجادل بها أصحاب هاتين الملّتين اللتين هما من أكثر أمم الأرض اليوم، الذين يستندون على كتب مقدسة، لكنها محّرفة، ومصروف مضمونها عن الدرب الصحيح[2]، بحيث بين الله في القرآن الكريم تكفير بعضهم لبعض ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[3]، ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان ٥٩، ٦٠، ويرجع إلى هذه السورة حتى الآية ٨٥ .

(٢) يراجع في هذا ما جاء في كتاب « لماذا وكيف أسلمت » لأحمد سامي عبدالله الصادر في سلسلة : دعوة الحق عدد ٦٥ شعبان عام ١٤٠٧هـ وعدد ٧٨ رمضان عام ١٤٠٨ هـ .

(٣) سورة البقرة، الآية ١١٣ . ويرجع إلى الآيات التي تبين شبههم في سورة البقرة الآيات ١١١ ـ ١٤٢ وغيرها في سورة أخرى .

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(١).

ومحمد صلى الله عليه وسلم الذي نشأ فقيراً يتيماً أميًّا بعثه الله إلى أمة بليغة في لغتها، غنية في تجارتها فوقف في دعوته لهم إلى دين الله ثابتاً لا يتزعزع، قوياً لا يلين لباطلهم، فكان من معجزاته، ما أمره الله أن يتحدى به قريشاً، بأن يأتوا بسورة تماثل سور القرآن، أو آية من آياته : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٢).

ولمّا جاء أمر الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلّغ رسالة ربه، لينذر الناس، ويدعوهم إلى نبذ الآلهة التي يصرفون العبادة لها من دون الله جاءه ذلك الأمر للتبليغ على مراحل تتدرج بحسب وضع المجتمع الموجهة إليه الدعوة، وبحسب القدرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتحمل والحماية له وللقلّة المستجيبة لهذه الدعوة، وهم الفئة المستضعفة في المجتمع ذلك الوقت، فصبر على ذلك ثلاثة وعشرين عاماً، حتى اتسعت دائرة الدعوة وعظم أمرها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً . فقد بدأت النّبوة بأول ما نزل من القرآن الكريم، وهي : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١٣٥ ـ ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٣، ٢٤ .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]، والتعريف للنبوة والرسالة : أن النّبي : هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه . والرسول : هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه فكل رسول يعتبر نبيّاً . ثم كانت الرسالة بالمدثر وتلتها سورة المزَّمل .

وكانت الدعوة سراً، خوفاً من أذى قريش، حتى أنزل الله سبحانه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2]، وكان التوجيه الرباني في القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم : التحمل والصبر في تبليغ الدعوة إلى الله ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[3]، والصبر الذي تكرر الأمر به لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم كثير يمتثله أصحابه، وكل الدعاة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهو من مجاهدة النفس، وتوطينها بالقدرة على التحمّل، في سبيل ما يدعى إليه . ثم جاءت المرحلة الأعلى عندما قويت شوكة المسلمين، وكثر عددهم، وكان لهم دار منعة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فكانت الآية

(١) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥ .
(٢) سورة الحجر، الآيات ٩٤ ـ ٩٦ .
(٣) سورة النحل، الآيتان ١٢٧، ١٢٨ .

الكريمة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[1] أمراً بإظهار دينهم، ذلك أن أعداء الله تجمعوا، وأرادوا القضاء على المسلمين، واستئصالهم، انتصاراً لباطلهم، وتعصباً للحق، وخوفاً من اتساع نطاق الدعوة، بعد أن تكاثر عدد المسلمين في المدينة بعد الهجرة .

ثم جاءت الآيات في كتاب الله للوقوف أمام قوة الكافرين بقوة مؤيدة من الله آمرة بالجهاد لنشر الدعوة بالقوة، والتصدّي لقوات الأعداء، فقال سبحانه : ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[2] .

ونزلت سورة محمد ـ التي يسميها بعضهم سورة القتال ـ وفيها الأمر بمجاهدة الكفار، لقمع شوكتهم، والقضاء على رؤوس الفتنة المتصدية للدعوة إلى دين الله الحق، الذين يريدون إطفاء نور الله وإسكات صوت الحق، يقول سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ

---

(١) سورة الحج، الآيتان ٣٩، ٤٠ .

(٢) سورة الحج، الآية ٧٨ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾[1].

ومن المراحل التي يجب أن يأخذ بها المسلم في الدعوة إلى الله ترسّم منهجها القرآني، بحسب ما بلّغ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو صلى الله عليه وسلم لم يطلب من أهل مكة زعامة ولا رئاسة، ولم يأت لأخذ أموالهم، ولكن دعاهم إلى الله « **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » وأن يكون الداعي إلى الله صادقاً في دعوته، محتسباً الأجر من الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] متحيناً الفرصة المناسبة للجهر بدعوته، مبيّناً باختصار ما يدعو إليه وما ينهى عنه : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[3].

وأن يلين الجانب مع المدعو، ويحلم عليه، حتى يستميل قلبه، ليأنس إليه ويصغي لما يُدعى إليه، ويتبصر في فوائده وآثاره، لعل الله أن يلين قلبه، ويفتح ذهنه ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[4].

---

(١) سورة محمد، الآيات ٣ ـ ٦ .
(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٤ .
(٣) سورة الرعد، الآية ٤٠ .
(٤) سورة النحل، الآية ٣٧ .

فالداعي إلى الله مبشّر غير منفّر، وميسّر وليس بمعسّر، ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[1] وفي هذا المعنى يؤكد صلى الله عليه وسلم على أمته بقوله : « **بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا** »[2]؛ لأن الكلمة إذا صدرت من القلب دخلت القلب، وإذا صدرت من اللسان لم تتجاوز الآذان، فيوجه الله جل وعلا حامل لواء الدعوة نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ـ وأمته له تبع ـ إلى حسن الخلق في الدعوة، حتى يقترب الناس منه، ويصغوا إلى ما يدعوهم إليه، فيقول سبحانه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾[3]، ويقول الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام لما بعثهما إلى فرعون الطاغية، الذي استكبر وتجبّر، ودعا الناس إلى اعتباره إلـٰهاً يعبد من دون الله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ ﴾[4].

ولما كان الخوف ممن هو أقدر من الإنسان، وأمكن في القوة المادية من السمات البشرية، فقد أظهر ذلك موسى وهارون عليهما السلام لربهما، وهو سبحانه أعلم بذلك منهما في قولهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ فأزال عنهما ما كان يراودهما من ذلك الخوف، في ذلك الحوار القرآني البليغ؛

---

(١) سورة الانشراح، الآيتان ٥، ٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، وينظر جامع الأصول ٢/ ٥٩٦ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .

(٤) سورة طه، الآية ٤٤ .

لأنه جل وعلا معهما بعنايته ورعايته وتأييده، يسمع ويرى . ومن كان الله معه فلا خوف عليه، وما عليه إلا أن يمتثل أمر الله، ويبلغ دعوته التي أُنيطت به، ويتحمل في سبيل ذلك ما يعترضه مطيعاً ومحتسباً .

فأمرهما جل وعلا بامتثال أمره، وعدم الخوف، وأداء الدعوة إلى الله على وجهها، لتبرأ الذمة، وتقوم الحجة، فقال سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] .

وإذا كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد روي عنه قوله : « حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » فإنه قد أدرك هذا المعنى من منهج القرآن الكريم التعليمي في الدعوة، وتلمّس مداخلها، وتحيّن الفرص المناسبة لها . وفيما سار عليه كل رسول في دعوة قومه، حيث يسخر الله ـ كما نجد ذلك مبسوطاً في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ـ لكل واحد منهم في دعوته إلى الله ما يتفاعل مع قدرات عقولهم، وإتيانه لهم بما هو أكبر مما يشغل أذهانهم، وبما ظهر في مجتمعهم لعلهم يدركون السّرّ العظيم وراء ما يُدْعَوْنَ إليه، ليعرفوا حقّ الله فيما دعتهم رسلهم إليه ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ

(١) سورة طه، الآيات ٤٦ ـ ٤٨ .

﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[1].

فالدعوة إلى الله، في مراحلها وفرصها، وفي حكمة الداعي وطريقته في الدعوة، محورها المنهج القرآني الكريم، حيث يظهر أمام المتأمل في كتاب الله، أن كل آية تعني منهجاً تعليمياً، وكل دلالة من النصّ القرآني المجيد، يستفاد منه طريق من طرق الدعوة إلى الله ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[2].

شمولية الدعوة :

إن الآيات العديدة في كتاب الله، قد أحاطت بمتطلبات الإنسان في هذه الحياة، واحتوت على الحلول لكل مشكلة من مشكلات الحياة البسيطة والمعقدة، ليجد الإنسان في أي موقع من الأرض وبأي زمن من الأزمنة الحلّ الطريّ لكل ما يعترضه، والبرهان القاطع على أن هذا القرآن حق من عند الله، ويدعو إلى معرفة الله معرفة حقيقية، حتى تؤدى له العبادة الخالصة على وجهها الذي يرضيه سبحانه، وحسبما أمر ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[3] فهي دعوة للعالم أجمع إنسهم وجنهم، وذكورهم وإناثهم، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٥٢ .

(٣) سورة البينة، الآية ٥ .

وهذا منهج دعويّ، ينفذ للعقول المختلفة، من المداخل التي تهم الجميع، ويجد فيه كل شخص الجواب الشافي لما يتساءل عنه : مستنيراً أو مشككاً .

يقول الشيخ محمد دروزه في تفسيره : « لقد احتوى القرآن الكريم حلولاً للمشكلات المعقدة، التي كانت تجعل الناس شيعاً وأحزاباً، وفرقاً وأضداداً، وإهابة بالغلاة والمفرطين للارعواء عن غلوهم وإفراطهم، وإرشاداً للحائرين والمترددين للانتهاء من حيرتهم وترددهم بأسلوب وجّه فيه الخطاب إلى العقول والقلوب معاً فيه كل القوة وكل النفوذ، وكل الإقناع لمن لم تخبث طويته، ويجعل إلـٰهه هواه، وتعمد العناد والمكابرة والاستكبار عن قصد وتصميم .

ثم احتوى تنظيماً للمناسبات، بين مختلف الفئات من الناس، وخاصة بين المستجيبين للدعوة ـ المسلمين ـ وغيرهم على أساس المسالمة والحرية، والحق والعدل، والتزام حدود ذلك بالتقابل، وكفّ الأذى، وعدم الصدّ والتعطيل والدس، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، إلاّ الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً ومقابلة العدوان بمثله، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله »[١] .

(١) التفسير الحديث للشيخ محمد عزة دروزه ١/ ٣٣، وينظر الهامش الذي حدد الآيات الكريمات التي ينبغي الرجوع إليها، وتبيين الأمور التي ذكرها أعلاه .

ذلك أن القرآن يأمر بالدعوة، وأن تكون بالإقناع، حيث يخاطب العقول، ويدعوها للتعقل والتفكر والتبصر، فيما حولها من آيات وعبر، وينهى عن الإكراه، وقسر الناس على الدين، إلا من عرف وعاند، وتصدى للدعوة، يقول سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، كما أن الدعوة ليست ملزمة لكل من استمعها أن يستجيب، بل الهداية هبة من الله يمنّ بها على من يشاء من عباده يقول سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[2]، ويقول تعالى في أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بمخاطبة الكفار: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[3].

وإن من أسباب لين القلب للدعوة، وتقارب النفوس للتآلف والتمعن في المصالح المرتقبة، وراء معرفة ما تنطوي عليه تعاليم الإسلام، وعلاجه لمعضلات المجتمعات المتباينة ـ أن تفتح القلوب للراغبين، وأن تعرض أمامهم بضاعة الإسلام بأسلوب شيّق وهادىء.

وما ذلك إلا أن مخاطبة العقول يحتاج إلى مهارة في

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.

(٣) سورة الكافرون، كاملة.

الإلقاء، وانفتاح صدر أمام المسترشد والراغب في البحث ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1].

يقول أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام : كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة، من الناحية النظرية، أو الناحية التطبيقية، وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين الذين وفّقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار، على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعاة، وأصحاب المهن، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجأوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السليمة في نشر هذا الدين، عن طريق الدعوة والإقناع بخلاف ما زعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمراً مستحيلاً يتنافى مع الأساليب السياسية، فقد جاء القرآن مشدداً في الحضّ على هذه الطريقة السليمة، في غير آية، مثال ذلك : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥ .

وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾[1] وقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2] . . . وبعد أن أورد عدة آيات استشهد بها على نهج الدعوة في القرآن الكريم . قال : وإن الغرض مما سنذكره في الصفحات التالية، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى في التاريخ، وكيف كان أئمة الإسلام يطّبقون نشاط الدعوة، وهذا الكتاب وضعناه لدراسة : تاريخ الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم[3] .

وكلامه هذا يعني فهم المسلمين لمنهج القرآن الكريم في الدعوة، ونورد هنا مثالين من النماذج الكثيرة في كيفية الوصول لأعماق القلوب، بمفهوم الدلالة القرآنية، على المعنى الذي يشغل ذهن غير المسلم لينجذب بذلك إلى الإسلام، من باب مخاطبة الناس بما يعرفون :

كان أحد علماء الجيولوجيا في جامعة أُكسفورد بإنجلترا يواصل بحثه في المختبر على عينات من الصخور، ووقف حائراً أمام تلوّن صخور جاءت من مكان واحد، وصار عدة أيام يجري التجارب لعله يهتدي إلى سر هذا التلوّن، وله مساعد مسلم من الهند، فلما رآه قد زادت به الحيرة، صار يتمتم بآيتين من كتاب الله عدة مرات، فسأله ذلك العالم عما يقول فترجم معناهما وهما

---

(١) سورة المزمل، الآيتان ١٠، ١١ .

(٢) سورة الجاثية، الآية ١٤ .

(٣) انظر كتابه هذا ص ٢٨ ـ ٣٠ .

قول الله في سورة فاطر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، فما كان منه إلا أن طلب إعادة الترجمة عدة مرات وهو يتأمل، ثم قال : وجدت الحل في حكمة الله، كما هي ماثلة أمامنا في النباتات والإنسان وغيره من المخلوقات المختلفة بلونها .

وكان هذا دافعاً قوياً لإسلامه ولتعّمقه في فهم معاني القرآن الكريم العميقة .

أما الثاني : فقد كان بحّاراً، ومعه مساعد له من الجزيرة العربية، وفي إحدى الرحلات طغى عليهم موج البحر وتلاطمت أمواجه، ونال منه الجهد وهو ممسك بعجلة القيادة، والموج يعلوهم تارة وينخفض أخرى، والظلمات تحيط بهم من كل جانب، مع مطر شديد وريح عاصف، فطلب من هذا العربي، أن يساعده ويمسك بعجلة القيادة بقدر ما يستطيع، حتى يتفادى كارثة كادت تحيق بهم، فجاء عنده، وبدأ في تدبير الأمر مع عجلة القيادة وهو يدعو ربه، ويقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[2] .

---

(١) سورة فاطر، الآيتان ٢٧، ٢٨ .

(٢) سورة النور، الآية ٤٠ .

وما زال هذا المسلم يرددها وهو يدعو ربه، حتى خفت الأمواج، وسكن الريح والمطر، فسأله الربان ماذا كنت تقول، فأخبره بأنه كان يقرأ آية في كتاب الله القرآن. فطلب الربان إخباره عنها فأخبره بمعناها فقال: هل كان محمد ربان سفينة، أو قد ركب البحر؟ فلما أجابه بالنفي، قال: ما قيل لنا: بأن القرآن من تأليف محمد فهو غير صحيح، من الآن عرفت أنه من قوة فوق قدرة البشر، لقد كنت أعيش في البحر بحاراً سنين طويلة ولم يمر علي مثل هذه الليلة وهـأنذا أرى الواقع العجيب، في معنى ما ذكرت من القرآن، فأريد أن أتعلم الإسلام الذي يدلنا على أمور لا يدركها حتى المختصون في مجالها، وتعلم الإسلام وهداه الله إليه فأسلم عن علم ويقين.

ولذا فإن كثيراً ممن أسلموا في ديار الغرب كان دخولهم عن طريق القناعة العلمية، بما ثبت لديهم من منهج القرآن في التعليم، والنفاذ إلى أعماق القلوب، بما هو محسوس ومقنع.

يقول سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة ص، الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

الخاتمة :

إن أساس منهج الدعوة إلى الله، وشموليتها لكل إحساس يخطر ببال ابن آدم على وجه الأرض، وبأيّ لغة يتحدث، متوفر في كتاب الله جل وعلا، لأن فيه الهدي والنور، وفيه الكمال، وراحة البال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[1]، فما ترك خيراً فيه مصلحة للثقلين ـ الجن والإنس ـ إلاّ وأرشد إليه، وما ترك شراً إلاّ وحذر الناس منه، سواء في أمور الدنيا، أو لما فيه السعادة الأخروية، سواء بالعبارة الواضحة أو بالمثل الذي يقرب الأمر المراد إلى الأذهان لتتفكر وتدرك حكمة الله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[3].

ولأن اللغة العربية، هي أبلغ اللغات البشرية، ومعانيها لا تحتمل دلالات متباينة، فقد خص الله هذه اللغة بمميزات عديدة ومنها : أنها لغة أهل الجنة، ونزل بها القرآن الكريم، ومعانيها ودلالة لفظها تصل إلى أعماق القلوب، وقد دخل بسبب ذلك

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٩ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٣ .

(٣) سورة الرعد، الآية ٤ .

كثير ممن أراد الله هدايتهم .

نموذج ذلك الطبيب الفرنسي، موريس بو كاي الذي جعل من نفسه داعية للنصرانية، لكل من يأتي إليه للعلاج، مستغلاً بعض الحجج والشبهات، التي تثار ضد الإسلام، ومشككاً في دلالة بعض المعاني في آيات القرآن الكريم، وأنه ليس من كلام الله صارفاً لها عن دلالتها . مستغلاً حالتي الجهل عند البعض، والضعف بالمرض لمن يأتونه للعلاج .

وقد هداه الله للإسلام بفضل الله ثم بحكمة وفهم الملك فيصل رحمه الله عندما أراد طرح شبهاته عليه، وكان لسان حاله يقول : إذا شكك الملك فيصل في بعض ما أقول له، فهذا أكبر نصر للتبشير، وبعد علاجه له بدأ يطرح شبهاته المعتادة مستدلاً بأن القرآن جاء فيه كذا وكذا، وأنه من كلام البشر وليس من كلام الله .

وبهدوء الملك فيصل رحمه الله سأله بدل أن يكون مسئولاً : هل قرأت القرآن باللغة التي نزل بها وهي اللغة العربية ؟ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]، فرد عليه بأنني قرأته مترجماً إلى اللغات الأوربية، قال له الملك فيصل : لم تقرأه ولم تفهمه، اقرأه باللغة التي نزل بها ثم ناقشني بعد ذلك؛ لأنك لم تقرأ كلام الله

(١) سورة يوسف، الآية ٢ .

(٢) سورة النمل، الآية ١٠٣ .

وإنما قرأت كلام المترجم . ذهب لتعلّم العربية بجد، ساعة يومياً لمدة عامين، ثم قرأه باللغة العربية بعد إجادتها فلم يسعه إلا الإسلام، وتغير فهمه للقرآن أخذاً من الآية الكريمة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[١]، وألّف كتابه : (التوراة والإنجيل والقرآن في نظر العلم العصري) الذي بين فيه أن القرآن العظيم هو الكتاب الوحيد الذي يستطيع المثقف ثقافة عصرية أن يعتقد أنه حق منزل من الله تعالى، ليس فيه حرف زائد ولا ناقص[٢].

فكل آية من كتاب الله الكريم، تشتمل على الدعوة والحكمة والعظة .

ومنهج الدعوة في كل آية، ينبني أساساً على الإقرار بوحدانية الله، وإخلاص العمل له، والتصديق بأن القرآن حق من الله، والإيمان بالرسل كلهم؛ لأن دين الله واحد ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾[٣].

والقرآن كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : فيه نبأ

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ١، ٢ .

(٢) تراجع كلمة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في مجلة البحوث الإسلامية العدد ١١ ص ٣١٣ ـ ٣١٨ : وبراهين : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ .

(٣) سورة الشورى، الآية ١٣ .

ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وهو المعجزة الخالدة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يخاطب العقول على اختلاف مستوياتها، بحجج وبراهين، لتعود إلى الحق، ببراهينه العقلية، وتتبصر في عمق ما يدل عليه بحججه اليقينية .

وإن استقصاء ما في آي الذكر الحكيم في القرآن العظيم من دلائل منهجية لكل أمر لممّا يعوِّد الناس المنهج السليم للدعوة الإسلامية، مقروناً بالشواهد والوقائع، وبسط ذلك يقتضي تأليفاً مطولاً يضيق به وقت المؤتمرات المعدة لإبراز هذا الجانب في مكانة الدعوة الإسلامية .

ولكن أبرز ما يجب على كل مسلم الاهتمام به كتاب الله، والرجوع إليه في كل أمر وتطبيقه في العمل، ومخاطبة الآخرين في الدعوة إلى الله، على منهجه المرسوم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، سواء كانوا أهل كتاب أو غيرهم من أصحاب المعتقدات، واستمالة قلوبهم بما يؤثر فيها، وتقريب المقارنات بين حالة وحالة بالمثل المضروب، والشاهد المحسوس استيحاء من منهج القرآن، مع نبذ الخلافات، أو العمل خلاف ما يدعو إليه القرآن، والامتثال لأمر الله وأمر رسوله وتحكيمهما في كل أمر يكون فيه خلاف : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] ذلك أن الدعوة يختلف

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٥ .

منهجها في القرآن الكريم بين مدعوّ ومدعوّ .

فالجاهل يدعا بالرفق واللين، ليوضح له الحق بدلائله وبراهينه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(١) وصاحب الشبهات إذا كان عنده جزء من علم يحاور باللين والرفق ومخاطبة عقله بالأدلة، وفهمه بالبراهين ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٢)، وعدم الغضب عند المحاورة معهم، أو تسفيه آرائهم، وشتم ما يعبدون حتى لا تأخذهم الحمية الجاهلية، فيكيلوا الصاع صاعين : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٣) .

وأن يكون الداعي إلى الحق واسع الصدر، متحملاً ما يبدر من تصرفات المدعو، مقرباً إليه الأمر المدعوّ إليه، بما يحفز للتأثير في أحاسيسه، حتى يلين في الاستماع، ولو بعد زمن : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾(٤) .

أما إذا كان المجادل لديه علم، ولكنه يجادل بالباطل لا للاسترشاد والبحث عن الحقيقة، ويكابر في تلبيس الحق الذي بُلِّغ به، كما هي الحال مع نصارى نجران، الذين حكى الله

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥ .
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٦ .
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٨ .
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .

شبهاتهم في سورة آل عمران وعنادهم، فكانت الدعوة للمباهلة هي الفاصلة ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

وهكذا نجد أن منهج القرآن في إبانة الحق مع المدعوّين بأن يأتي مع كل حادثة حديث، ولكلّ مقام مقال يتلاءم معه، بحسب حالة القلوب ورغبات النفوس : ليناً وتأثيراً أو شدة وتعنيفاً .

وما أحكم ما قال الأول :

وفي كل شيء له آية
تدلّ على أنه الواحد

والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

(١) سورة آل عمران، الآية ٦١ .